تراثنا من فجر اليقظة
إلى العصر الحاضر

- بعد ليل طويل
- فى دوامة العصر

بدأ التفاتنا إلى تراثنا مع حركة اليقظة التى لاحت بوادرها فى القرن الثامن عشر ، حيث أدرك رُوادها أن ارتباط اليقظة بجديد الغرب وحده ، يفقدها عنصر الأصالة الذى ترتهن به صحتها وسلامتها . وقدروا عقم الحركة إن هى اقتصرت على مجلوب مستعار لا تربطه صلة بجذورنا الضاربة فى أعماق الزمن .

فى الوقت الذى قدروا فيه جدوى اتصالنا بالحضارة الغربية الحديثة ، وضرورة إمداد حياتنا بروافد منها تُوجِّه تيار اليقظة مع روح العصر ، وتغذى وجودنا بثمار التقدم ، وتساير به تطور الزمن .

ولم تنفصل حركة إحياء التراث عن حركة اليقظة القومية ولا قامت بمعزل عنها ، وإنما كانت عنصراً أساسيًّا فى برنامجها ، وموقعاً من مواقع النضال فى الميدان العام الذى تقاسمه الرواد فيما بينهم .

وفى كل مجال ، كان الاهتمام البالغ باستقراء ماضى تاريخنا ، لا قصداً إلى الرجوع إليه والوقوف عنده ، وإنما كان القصد إلى الانطلاق بالأمة من حيث انتهت مراحل سابقة أعطتها كل ميراثها وكل تجاربها .

ومن واقع تاريخ اليقظة ، نرى أن مهمة السعى لاكتشاف جوهر ذاتنا والبحث عن جذورنا ، لم يحمل عبئها الأمسيون الذين يعيشون بعقلية الماضى ، وإنما نهض بها عصريون مجددون ممن اتصلوا بالغرب الحديث أوثق اتصال ، ونهلوا من موارد ثقافته .

فالشيخ « رفاعة الطهطاوى » إمام البعثة العلمية الأولى إلى باريس ، نقل إلينا ما نقل من حضارة الغرب ، وحرص فى الوقت نفسه على أن يجمع ما استطاع من مخطوطات تراثنا ، عمرت بها خزانة كتبه فى سوهاج .

والإمام « الشيخ محمد عبده » الذى ألقى به الصراع السياسى فى أوربا حيث عاش زمناً يتابع جهاده من هناك ، هو نفسه الذى عكف على القرآن الكريم يفسره بعقلية جديدة ، ويلتمس منه أصول الدعوة إلى تحرير الفكر الدينى والإصلاح الاجتماعى والسياسى . وهو الذى جعل مطبعة بولاق الأميرية تدور لطبع ذخائر من تراث العربية .

وشيخ العروبة « أحمد زكى » عاد من أوربا بعد أن تزود بالثقافة الغربية ، ثم لم يلبث أن قام برحلات عدة إلى الخارج ، باحثاً عن كنوز تراثنا ، وناقلاً إلينا ما استطاع نقله منها .

والعلامة « أحمد تيمور » العصرى الثقافة والنشأة فى جيله ، هو الذى أنفق ماله بسخاء على ذخائر المخطوطات العربية ، ووهب لها حياته جامعاً ودارساً .

• • •

لم تكن حركة إحياء التراث إذن ، والدعوة إلى الاتصال بقديمنا، صخرةً رجعية يُلقى بها الأمسيون فى مجرى تيار اليقظة والتقدم ، بل كانت بشهادة الواقع التاريخى مدداً سخياً لهذا التيار ، أراد به المصلحون المجددون تعميق مجراه ، وتأمين حيويته وسلامته ، بصدوره عن نبع أصيل فى أرضنا الطيبة .

وبفضل أولئك الرواد شهدت الفترة التى أعقبت ثورة عرابى ، حركة إحياء للتراث أخذت مجراها فى ناحيتين :

أولاهما: نشر ذخائر المخطوطات مما جُمع فى مكتبة الجامع الأزهر ، وفى دار الكتب المصرية التى نُقِل إليها ما كان مبعثراً من تراثنا فى المساجد والزوايا . كما نشرت ذخائر مما جمعه رفاعة الطهطاوى وأحمد زكى وأحمد تيمور . فأخرجت مطبعة بولاق ومطبعة دار الكتب عدداً غير قليل من أمهات الكتب العربية إلى جانب ما أخرجته المطابع الأهلية ، ومطابع الشام والعراق والمغرب.

والأخرى : إمداد حياة الأمة فى مختلف نواحيها ، بزاد سخى من ماضيها فى عصور القوة . كمثل ما فعل الشيخ محمد عبده فى تجديد الفكر الدينى ، وقد كان هو الذى زود « قاسم أمين » بأصول إسلامية لدعوته إلى تحرير المرأة . ومثل ما فعله « البارودى » رائد الشعر الحديث ، حين اتصل بتراثنا الشعرى فى عصور القوة والازدهار ، لينطلق بالشعر على معبر التطور نحو عصر جديد [1] .

• • •

(١) راجع محاضرة : أدبنا المعاصر ومنطق التطور ، فى كتابى « قيم جديدة للأدب العربى » ص ١٩٩ وما بعدها . ط معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ ، ودار المعارف ١٩٧٠ .

ونقدر أن هؤلاء الرواد حين أرادوا تدعيم حركة اليقظة بأصول من تراثنا ، ألفوه مبعثراً فى شتى أنحاء الدنيا . فعجزوا عن استيعاب ما فى خزائن الغرب منه بل عجزوا كذلك عن أن يحيطوا علماً بما بقى لنا من ذخائره . ومنها ما كان مدفوناً فى خزائن خاصة لا يدرون عنها شيئاً ، أو مخزوناً فى سراديب الجوامع وأقبية القصور ، أو مكدساً فى كهوف اليمن ملكاً خاصاً لحُكَّام من الأئمة لا ينتفعون به ولا يريدون له أن ينفع الناس .

فلا غرابة ولا ملام أن قصُر جهد الروّاد فى فجر اليقظة ، على جمع ما أمكن جمعه من مخطوطات التّراث ، وصيانتها فى مكتباتهم الخاصة أو فى مكتبات عامة تتيح فرصة الانتفاع به ، ونشر عدد غير قليل من ذخائره أدت دورها فى حركة اليقظة القومية بقدر ما واتت ظروف المرحلة وأعانت طاقتها .

* * *

ومضى جيل الرواد ، وترك هذه الأمانة فى أعناقنا ، نفى بها على المستوى الذى بلغه نضجُ وعينا ورشد إدراكنا وتقدم الزمان بنا ، وعلمُنا بما بذل المستشرقون وما لا يزالون يبذلون من جهد وعناية بهذا التّراث .

انطلقت حركة اليقظة القومية للعرب ، تغذ السير مع العصر الحديث .

ولم يغب عن وعى الأمة ما حاوله رواد اليقظة من إحياء تراثها . فتقدم إلى الميدان خلّف لهم من علماء العربية والإسلام ، تابعوا نشر ذخائر من تراثنا ، كما قامت هيئات علمية رسمية بنصيب من هذا العبء ، فنشرت دار الكتب المصرية والمجمع العلمى العربى بدمشق والمجمع العلمى ببغداد ، بضع مئات من أمهات الكتب فى اللغة والأدب وتاريخ الإسلام والتفسير ، كما اهتمت دور نشر خاصة بطبع عدد منها .

ومن ناحية أخرى ، كانت الجامعة تدعو إلى منهج علمى لتحقيق التّراث . ويذكر تاريخ كلية الآداب بجامعة القاهرة أن أستاذنا أمين الخولى فرض هذا المنهج على طلبة الامتياز بقسم اللغة العربية ، ثم ألزم من يتقدم منا إلى درجتى الماجستير والدكتوراه ، بأن يقدم مع بحثه نصاً محققاً لمخطوط من تراثنا يتصل بموضوع الرسالة .

قصداً إلى تزويد الأمة بعدد من المتخصصين ، يحملون أمانة تحقيق تراثها ، ويسدون الفراغ الذى بدأ تجار الكتب يقتحمونه ويوردون إليه نصوصاً مطبوعة من تراثنا ، لم تخضع فى نشرها لأى ضابط من ضوابط التحقيق يحميها من العبث والتشويه .

ويمكن القول بأن وضع التراث فى تلك المرحلة التى أعقبت فجر اليقظة واستغرقت النصف الأول من القرن الحالى ، كان يساير الوضع العام للأمة ، ويلبى حاجته ، ويشوبه ما شاب وجودنا من مظاهر القلق والاضطراب .

والمرحلة يعرفها تاريخ الأمة العربية ، مرحلة استجماع للقوى وتأهب لمعركة تحقيق الذات ، وتحفز للانطلاق الثورى ضد الاستعمار .

ويعرف كذلك ما تعرضت له من هزات القلق الجائع وهى تحاول أن تتلمس طريق الخلاص ، وما عصف بها من تيارات متدافعة متضادة ، تأتيها من داخل ومن خارج ، وتضغطها بين شد وجذب .

وإذا كان استمرار الجهود لإحياء التراث ، والدعوة إلى تأصيل المنهج العلمى لتحقيقه ونشره ، واتجاه الكبار من كتاب المرحلة إلى إذاعة المطوى من أمجاد تاريخنا وبطولات ماضينا ،

أقول إذا كان هذا ومثله ، معبراً عن وعى المرحلة وإصرار الأمة على حماية مقومات وجودها وعناصر أصالتها ،

فكذلك كان ترك مجال التراث مستباحاً لغير أهله ، والغفلة عن الثغرات التى يتسرب منها إلى الغرب ، مظهراً لما كان يعوز المرحلة من وضوح الرؤية لأبعاد معركتها الكبرى .

فتركنا مخطوطات تراثنا بضاعة مبذولة لتجار السوق ، يستبيحون كل ما لها من حرمة علمية ويهدرون كل قيمة أثرية لها ، من حيث هى مادة للتاريخ !

وتركنا الأجانب يجوسون خلال الديار بحثاً عن المخطوطات . ويخرجون بما يشترون منها على مرأى منا ومسمع !

لأننا لم نتصور أن هذه المخطوطات تدخل فى الآثار التى يتكفل القانون

بحمايتها ، فلسلطة الجمرك أن تصادر مثلاً قطعة من نسيج أثرى أو وعاء من مخلفات عصر مضى ، كيلا يخرج من ديارنا ،

ولا تصادر عشرات من المخطوطات يخرج بها الأجنبى من بلادنا فى ضوء النهار !

وكأن مناط الأثرية فى مثل " حجر رشيد " مادتُه الحجرية ، وليس النصّ المنقوش عليه !

وكأن المخطوط ليس أثراً ، لا بنصه فحسب ، ولكن كذلك بخطه ومداده وورقه وغلافه . . . حيث يعطينا كل هذا مادة لتاريخ عصره وبيئته ومجتمعه ! !

* * *

ومع النصف الثانى من القرن العشرين ، حيث تبدأ المرحلة الحالية من تاريخنا المعاصر ، انفصلت حركة إحياء التراث عن مدّ الحركة القومية ، فبدا هذا الانفصال شذوذاً فى منطق الحياة وسنة الوجود .

لكنا بقدرٍ من التأمل الفاحص ، نستطيع أن نلمح تفسير ما يبدو لنا شذوذاً ، وعلة ما يبدو لنا صدفة واتفاقاً :

لقد كان من الطبيعى أن تتجه الأمة بكل طاقتها إلى معركة التحرير ، حسماً لمأساة الاستعمار وعار الاحتلال .

وكان من الطبيعى كذلك أن يستغل عدوُّنا غفلتنا عن الموقع الفكرى ، فيعبئ له جنوداً لا نراهم ، أو قد نراهم فلا نرتاب فيهم !

وانكشف الميدان لغزو فكرى جائح ، خطط له الاستعمار بمهارة ودهاء ، وسهر على الإعداد له فى ليلنا الطويل .

وكان من أخطر أسلحته ، ما أورثتنا المرحلة الماضية من تصدع ثقافى ، أثراً لتفاوت البيئات الفكرية والتعليمية التى نشأ فيها جيلنا ، وتلقى منها زاده العقلى والوجدانى .

« فنحن جميعاً — كما قلت هنا فى محاضرتى بالموسم الماضى عن المناخ الفكرى

لأدبائنا المعاصرين — أبناء جيل أعوزه التعاضر الثقافى فى مرحلة التلقى والتكوين والتأثر : فينا من تلقى زاده الأول من نبع عربى شرقى صميم ، حصّنه ضد تيارات الفرنجة الوافدة . وفينا من لا زاد له إلا الفكر الأجنبي وقد أمضى مرحلة الحضانة العقلية والتكوين النفسى فى بيئة عزلتْه عن وجود أمته .

وفى دوامة الصدام بين هؤلاء الغرباء ، لف تراثَنا غبارٌ أكثف مما ألقاه عليه طولُ الإهمال .

وتداعى السائرون غرباً، ممن ينتحلون لأنفسهم صفة العصرية ، إلى التخلص تماماً من عبء تراثنا الذى يثقل كاهلنا ويعطل خطانا على مراقى التطور .

واستكثروا ما ينفق عليه من جهد ضئيل مبعثر ، وهم لا يرون فيه ، وفى ماضينا كله ، إلا أكفان موتى وأضرحة قبور ، يفسد ريحها مناخ العصر .

وجهروا بأن فيما نتعلق به من ميراثنا الروحى والتاريخى « وقفةٌ جامدة على مقابر الأنبياء ، تحاول أن تزج بمجتمعنا داخل صناديق حديدية صغيرة لا تتسع إلا للدمى ، فى طفولة الجنس البشرى »[1] .

وشقت هذه الدعاوى مجراها فى وجودنا المعاصر ، يؤازرها تدفق التيارات الوافدة التى فتحوا لها الأبواب ، بوهم أن وجودنا العصرى يتطلب أن نستعير كل ثقافتنا وفكرنا وأدبنا من الغرب القوى الغالب .

وفى غفلة عن الموقع الفكرى ، بما شغَلنا من أعباء التنمية ومعارك تصفية الاستعمار والقرصنة الدولية والمؤامرة الصهيونية ،

تدفق جنود الاستعمار الجديد ، وقد ارتدوا أقنعة خدام علمٍ ورسل ثقافة ومبشرين بالتفاهم والتقارب بين شعوبهم وبيننا !

وغزتنا مؤسسات ثقافية أجنبية قوية النفوذ ، بعضها يعتمد على ذكاء الحيلة وبراعة الخبرة، وأخرى فاحشة الثراء تعتمد على كرم البذل وسخاء العطاء، والاقتدار على وسائل النشر وأفانين الدعاية والإعلان .

---

(١) انظر ص ٢٢٣ وما بعدها ، من (قيم جديدة للأدب العربى) ط معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ . ودار المعارف ١٩٧٠ .

دون أن تكون هناك أدنى فرصة للتكافؤ بين فكرنا القومى الأصيل وبين هذه البضاعة الأجنبية الوافدة ، تدق لها طبول الدعاية وأجراس الإعلان ، وتتألق فى طبعاتها الأنيقة الفاخرة ومظهرها الفخم الخلاب ، معروضة للبيع بأرخص الأسعار ، أو موزعة هدايا بلا ثمن ، لأنها تصدر عن « مؤسسات غير تجارية » مهمتها أن تنفق وتنشر وتغزو ، وليس فى حسابها أن تحقق أى ربح مالى مباشر .

* * *

ولكن الأمة لم تفقد وعيها فى دوامة هذا الضجيج الهادر .

وهى إذ تدرك استحالة العزلة الفكرية فى عصر (الترانزستور) الذى يحمل إلينا أنفاس الغرب عبر المسافات الشاسعة بأسرع من لمح البصر ومجرى الخيال ، تدرك كذلك ألا بأس عليها فى أن تفتح الأبواب والمنافذ لشتى التيارات الوافدة ، على شرط أن يكون لفكرها القومى كيان راسخ أصيل متميز ، لا تمسخه الطوارئ ولا تزلزله الريح . ولا يفوتها أن تفرق بين روافد تأتينا من الخارج فتخصب وجودنا الفكرى وتزيد ثقافتنا رحابة واتساعاً ، وبين أن تطغى هذه الروافد على المجرى الحيوى الأصيل فتبدده أو تطمره .

وأن تميز بين المخصبات المستوردة ، وبين النبت المزروع فى أرضنا من بذرة تستمد مقومات حياتها من عناصر التربة المحلية .

وهى بحيث تعى أيضاً ، أن حرية الفكر تقضى بأن يكون لإنسان العصر حق الانتماء إلى أى مذهب أو مدرسة . لكن هذه الحرية تغدو زيفاً وضلالاً ، وتمسخها أغلال الرق ، إذا لم تكن للإنسان أهلية الاختيار الحر الرشيد . وهذه الأهلية لا يمكن أن يدعيها من يجهل الشخصية المعنوية لأمته، ويعوزه فهم فكرها القومى بكل ما له من خصائص مميزة ، وكل ما له من ميراث قومى تلقاه من آباء له وأجداد ، منذ خطوتهم الأولى على درب الوجود .

ذلك لأنه بهذا الجهل ، يكون عرضة للغواية والتضليل ، والفتنة والاستهواء ، والاستعباد لما يتسلط على عقله ووجدانه من غزو ، دون مناعة أو رشد .

وبخاصة بعد أن انحرفت المعركة الفكرية فى دوامة العصر ، عن صراع قيم ومبادئ ؛ إلى سباق على استعمار جديد ، وتنازع على مناطق النفوذ ، الغلبة فيه لا ترتهن بقيمة المبدأ أو قوة الفكرة ، وإنما ترتهن بمكر الحيلة ودهاء الأسلوب ، أو براعة الدعاية وسخاء الإنفاق .

* * *

٩ وآية هذا الوعى القومى، ماتتداعى به الأمة العربية من إعادة فهم تاريخها وكتابته.

لتحريره مما شابه من تشويه وحذف وبتر . وهى مهمة جليلة لا يمكن أن تتم بمعزل عن تراثنا الذى هو مادة لهذا التاريخ .

ولاحت على أفقنا الثقافى القوى بوادر استجابة للدعوة إلى تعديل "قانون حماية الآثار" بحيث يكفل حماية مخطوطات التراث[١] .

كما جدت الهيئات العلمية فى أقطار الوطن العربى ، فى إحياء تراثنا ، فنشرت وزارة الثقافة بمصر مخطوطات هامة من كتب اللغة والأدب وتاريخ الإسلام ، وشارك المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى هذه الحركة ، بنشر عدد من كتب تراث الإسلام ، ونشر المجمع العلمى بدمشق ، والمجمع العلمى ببغداد ، ووزارة الأوقاف بالمغرب ، ذخائر أمهات كتب اللغة والأدب والفقه ، كما تقدم الكويت إلى الميدان يبذل له بسخاء .

ووجه معهد المخطوطات عنايته إلى تصوير مخطوطات من خزائن الكتب العربية فى الشرق والغرب :

وشاركت بعض دور النشر الكبرى فى هذا المجال ، فنشرت «مؤسسة دار المعارف» بالقاهرة سلسلة ذخائر العرب ، واتجهت تطول «مكتبة المثنى فى بغداد» إلى ما نشر المستشرقون من أمهات كتب تراثنا ، فأعادت نشر ما نفد منها ، مطبوعاً بـ (الأوفست) .

* * *

ونذكر هنا لوزارة الثقافة بمصر ، مبادرتها إلى إنشاء مركز لتحقيق التراث فى دار الكتب على غرار معهد الآثار ، يزود الوطن العربى بخبراء التراث ، ويرجى أن يكون مركزاً عربيًّا عالياً لبحوث تراثية رائدة ، على ما سوف نعرض له بمزيد تفصيل فى ختام هذه المحاضرات .

* * *

(١) بعد إلقاء هذه المحاضرات ، نشرت صحفنا فى شهر ديسمبر الماضى مشروع هذا القانون المرجو ، تقدم به السيد « الدكتور ثروت عكاشة : وزير الثقافة » إلى مجلس الأمة .

ولا بأس بهذه الجهود كلها ، لولا أنها مبعثرة يعوزها التخطيط الذى ينسقها ويوجهها ، بما يحقق التكامل بينها ، ويحميها من الفوضى والارتجال ، ويحدد لكل هيئة منها دورها فى إحياء التراث .

ويحدونا رجاء كبير فى أن يزداد وعينا لقيمة تراثنا عمقاً ورسوخاً ، بحيث يساير وعينا القومى ، ويستوعب كل ما ترك لنا أسلافنا فى شتى فروع العلم والمعرفة ، لا يقف بها عند عصور تاريخنا الإسلامى ، بل يمتد مع ماضينا موغلاً فى أعماق الزمن .

وقد تسألون عن تراثنا فى الغرب المعاصر ، فأقول : إنه ما زال يجد هناك حظه الوافر من العناية والاهتمام . ودخلت حركة الاستشراق فى مرحلة جديدة تريد مزيداً من التفهم لعقليات الشعوب الشرقية وأمزجتها .

وقد ترى فيه ما يدعم دعوة العصر إلى الإخاء الإنسانى والتفاهم بين الشعوب خدمة للسلام .

لكنها فى الوقت نفسه ، ما تزال تمد الصراع المذهبى بأسلحة قوية من فهم شعوب الشرق، وتزوده بدعاة يتكلمون بلغات هذه الشعوب ولهجاتها ، فما من لغة شرقية أو لهجة من لهجاتها ، لا تجد هناك — فيما أرجح — من يتقنها من القوم ويترجم منها وإليها .

أذكر أننا فى المؤتمر الأول للكتاب الآسيويين والإفريقيين الذى عقد فى طشقند سنة ١٩٥٨ ، قررنا أن يُسمح لأعضاء الوفود بإلقاء كلماتهم بلغاتهم القومية ، وكان اللافت حقاً ، أن لجنة تنظيم المؤتمر وجدت لكل هذه اللغات الإفريقية والأسيوية ، وقد بلغ عددها نحو ستين لغة ، من قاموا بالترجمة الفورية من كل لغة ، إلى الروسية والعربية والإنجليزية والفرنسية .

كما وجد أعضاء الوفود — ومنهم من لم يكن يتكلم بغير لسانه القومى — مرافقين يتحدثون معهم بلغاتهم .

ولم تثر الظاهرة اللافتة دهشتنا ، بعد أن زرنا معهد الدراسات الشرقية فى موسكو ، ووجدنا ما زُود به من أجهزة الصوتيات وأشرطة سجلت عليها اللهجات الشرقية . يتدرب عليها ممن يُعدهم المعهد لتلبية حاجة الاستشراق المعاصر .

* * *

ويقول المستشرق الروسى « جريجورى شرباتوف » فى مقال له عن « دراسة المخطوطات العربية فى الاتحاد السوفييتى [1] » . بعد بيان لجهود الرواد من مستشرقى الروس :

---

(١) نشر بالملحق الأسبوعى لأهرام الجمعة : ١٩٦٣/١/٤ .

« وبدأت مرحلة جديدة من مراحل دراسة المخطوطات العربية فى بلادنا بعد ثورة أكتوبر الكبرى . وأدى التغير الجذرى فى الحياة العلمية إلى اتساع الدراسات الشرقية وإقامة مركزى استشراق كبيرين فى لينينجراد وموسكو ، وكذلك تأسيس مراكز علمية فى جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز . وفى كل من هذه المناطق تنشط حركة جمع ودراسة المخطوطات الشرقية والعربية خاصة ، كما تغيرت وتحسنت ظروف حفظ المخطوطات فيها » وتكونت مجموعات المخطوطات العربية فى مختلف المدن : طشقند وباكو وتبليس وخاركيف . . . ، وأضخمها مجموعة المخطوطات فى معهد الاستشراق بطشقند عاصمة جمهورية أوزباكستان ، وتضم هذه المجموعة ثمانين ألف مخطوط بالعربية والأوزباكية وغيرهما من اللغات الشرقية . وأقدم مخطوطة عربية فى هذه المجموعة ترقى إلى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) . وفى السنوات الخمسينية صدرت أربعة مجلدات فى وصف مجموعة طشقند ، تتناول أكثر من ٢٧٠٠ مخطوط فى التاريخ وعلم الطبيعة والطب والجغرافيا والزراعة والفلسفة والآداب واللغة . وفى لينينجراد أيضاً ، طبع فى السنوات الأخيرة جزءان من (كتالوجات) المخطوطات العربية فى معهد شعوب آسيا : الجزء الأول فى الأدب النثرى ، والثانى فى الجغرافيا . ويُعد الآن للطبع جزءان آخران فى وصف مخطوطات الشعر العربى ، ومؤلفات التاريخ والسير ، ومخطوطات الطب . كما نشر هناك دليل للمجموعة العربية فى مكتبة لينينجراد . أما المجموعات العربية فى المدن الأخرى كموسكو وباكو وتبليسى وخاركيف ، فوجدت وصفها فى أعمال المستشرقين : ج تسيرتيبلى ، و م . ساليه ، و ا . كوفاليوفاليوسكى وغيرهم .

« وعلى غرار العلماء المستشرقين الروس للقرن التاسع عشر ، واصل ويواصل المستعربون[1] السوفييت الدراسةَ الدائمة للمخطوطات العربية ، ولهم فى هذا الميدان ما نفتخر به من كشفٍ وتحليل وطبع المخطوطات البالغة القيمة ، وأسماء هؤلاء العلماء كثيرة ، فنذكر منها : إ . كراتشكوفسكى ، ف . إيبرمان ، أ . بوريسوف ، ف . بيليايف ، ب . بولجاكوف ، إ . خالدوف . . .

---

(١) شاع فى عصرنا استعمال هذا الاشتقاق ، تمييزاً للمشتغلين بالدراسة العربية من المستشرقين . وهو فى مصطلحنا التاريخى ، لتمييز العرب المستعربة ، عن العرب العاربة .

« . . . ومما يجدر ذكره أن لعلماء بلادنا فضل الكشف عن مخطوطات لم تعرف من قبل . وخاصة ما كان منها بخط مؤلفها، مثل مخطوط الأمير السورى "أسامة ابن منقذ" المعروف باسم (كتاب المنازل والديار) وهو يتضمن مجموعة غزيرة من الأشعار فيما بين القرنين السادس والثانى عشر ، وفى السنة الماضية نشر فى لينينجراد النص الكامل لهذا المخطوط ، باللغة العربية .

« ويجدر بنا أن نشير إلى اكتشاف "ف . بيليايف" مخطوطة مجهولة من أقدم المصادر المتعلقة بتاريخ الحركة العباسية ، فدرسها ونشرها أخيراً المستعرب " ب . جرياز نيفتش" . أما فى الفلسفة فقد وجد" أ . بوريسوف" قبل الحرب فى لينينجراد مخطوطة لها أهمية استثنائية ، وهى نسخة عربية لعلم اللاهوت الشهير الذى نسب إلى أرسطو دون تحقيق .

« وفى طشقند ، عند دراسة كتب أبى بكر الرازى الكيميائية ، اكتشف المستشرق الأوزبكى " ا . كريموف " مخطوطة يتيمة لكتاب (سر الأسرار) . وعلى أساس مخطوطة فريدة أخرى فى لينينجراد[1] ، كتب " ت . شوموفسكى " رسالة عن الإرشادات البحرية المجهولة لأحمد بن ماجد – القرن الخامس عشر . م –

« هذا والاهتمام الكبير لعلمائنا ، وجه إلى دراسة وترجمة المواد الجغرافية والتاريخية عن تاريخ شعوب آسيا الوسطى والقوقاز والمناطق الأخرى السوفيتية التى تعود صلاتها التاريخية والثقافية مع البلاد العربية إلى قرون قديمة . وفى هذا الصدد حُققت ونشرت عندنا آثار مختلفة ومنها مثلاً : رسالة ابن فضلان عن رحلته إلى منطقة الفولغا – فى القرن العاشر – والرسالة الأولى لأبى دلف الخزرجى عن رحلته إلى آسيا الوسطى والهند والصين . ورسالته الأخرى عن سفره إلى أذربيجان وأرمنيا وجورجيا فى القرن العاشر » . . .

• • •

ولعلكم تلحظون معى الاتجاه الواضح إلى العناية بتراث المناطق الأسيوية التى دخلت فى نطاق الاتحاد السوفييتى ، حيث بدت الأهمية القصوى لفهم شعوب تلك الجمهوريات الطارئة التى كانت من قبل أقاليم من الدولة الإسلامية الكبرى .

(١) هى ثلاث أراجيز فى علم البحار ، لأحمد بن ماجد . ولها حديث خاص يأتى بعد ؛ فى : أضواء على تراثنا

والجيل الحالى من مدرسة الاستشراق الروسى ، يوجه طلابه إلى إعداد بحوثهم للدرجات الجامعية العليا ، فى مجال التراث الشرقى . فالدكتور شوموفسكى نال درجة الدكتوراه فى مخطوط لابن ماجد فى علم البحار ، والدكتور بولجاكوف تقدم ببحث فى معلومات جغرافيي العرب فى آسيا الوسطى ، فى القرنين التاسع والعاشر . وكان موضوع « أولجا فرولوفا » ما فى تاريخ ابن الأثير عن ماضى شعوب آسيا الوسطى !

ويهتم معهد الاستشراق فى طشقند بتراث علمائنا فى أوزباكستان وبخارى وسمرقند وغيرها من أقاليم الشرق الآسيوى . ومما نشر من مخطوطات ذلك التراث الإسلامى ، (كتاب الآثار الباقية) لأبى الريحان البيرونى ، والكتب الأولى من القانون فى الطب لابن سينا ، وكذلك رسائله الفلسفية مع البيرونى . . .

وهم يتابعون ما ينشر هنا من تراث تلك المناطق بوجه خاص ، ويترجمون البحوث التاريخية فى هذا المجال . وأقرب ما أذكره هنا ، مبادرتهم إلى ترجمة البحث الذى ألقاه أستاذنا أمين الخولى فى مؤتمر المستشرقين الدولى بموسكو سنة ١٩٦٠ ، فى « صلات بين النيل والفولجا » ونشرت أكاديمية العلوم هناك ، الترجمة الروسية للبحث ، مع مقدمة للدكتور بيليايف ، قبل أن يطبع الأصل العربى هنا فى القاهرة ، بثلاث سنوات .

كما نشرت موسكو سنة ١٩٦٦ ، النص العربى لتقريرى عن مجموعة بردى ألبرتينا ، بعد أن ظل عامين هنا لا يجد سبيلا إلى نشره فى مصر ، صاحبة كل هذا البردى[١] .

وفى انجلترا ، نشرت جامعة أوكسفورد مجموعة محققة من نصوص المخطوطات العربية ، باسم "الكتاب التذكارى للأستاذ جب"، المستشرق الإنجليزى الكبير.

وتتابع المكتبة القومية فى ڤيينا ، نشر بحوث عن مجموعتها الكبرى للبردى فى « ألبرتينا » وأحدث ما نشرته من هذه البحوث سنة ١٩٦٠ ، الرسائل التى تبودلت بين المستشرق النمسوى كارباتشك ، والتاجر تيودور جراف ، والأمير راينر ،

---

(١) فيما يلى من (أضواء على تراثنا) ملخص لهذا البحث .

وهم الثلاثة الذين تدين لهم النمسا ، بفضل ظفرها بأكبر وأشهر مجموعة للبردى فى العالم كله .

وتعكف جامعة باليرمو فى صقلية ، على دراسة المخطوطات فى المكتبة الصقلية ، استكمالاً للدور الكبير الذى قام به « المستشرق أمارى » فى هذا المجال . وبلغ من اهتمام الدولة الإيطالية بهذا الموضوع ، أن وجهت الدعوة إلى عدد من الخبراء العرب ، ليسافروا على نفقتها ويدرسوا الآثار الباقية هناك للعرب فى صقلية . وقد كنت من بين الذين وُجهت إليهم هذه الدعوة ، كى أتتبع الآثار الأدبية واللغوية . ولست أدرى أين وصلت بها الإجراءات الديوانية هنا ، بعد عامين من توجيهها !

ويواصل مركز الاستشراق فى « ليـدن » بهولاندة ، إعداد طبعة جديدة من « دائرة المعارف الإسلامية » .

كما بدأ منذ نحو عشرين عاماً فى متابعة عمل المستشرق الكبير « بروكلمان » واستكماله من حيث وقف عند عام ١٩٥٤ فى كتابه الشهير الجامع " تاريخ الأدب العربى " وصدر فى عامنا هذا المجلد الأول من امتداد هذا السفر — فى نحو ألف صفحة — مستقصياً تراث العربية والإسلام إلى سنة ٣٤٠ هـ ، بإشراف الخبير التركى « فؤاد سزجين » على أن يتوالى نشر المجلدات الستة تباعاً .

والحديث عن تراثنا فى الغرب المعاصر يطول ، وما أردت بهذا القدر الموجز الذى قدمت منه ، إلا أن أدفع شبهة قد تُوهم أن الغرب الحديث كف عن الاهتمام بتراثنا ، أو شُغل عنه بسباقه العلمى وصراعه المذهبى . .

* * *

وبعد ، فإذا كان المجال المحدود لهذه المحاضرات قد قضى بأن نتناول تراثنا بالنظرة العامة التى لا تحيط بأبعاده ، وبالفكرة المجملة التى لا تستوعب دقائق الجزئيات .

فلعل فيما أقدم من « أضواء على تراثنا » ملحقة بالمحاضرات ، ما يضيف إلى مجمل الفكرة مزيداً تفصيلٍ وبيان . .